سراب المجـــد

الحب يقهر كل شيء

قرميل

للأستاذ محمد محمود زيتون

جلس الرفاق على الشاطىء وأداروا وجوههم إلى البحر وكانت الشمس تهوى إلى الغروب . وفيما ورأها الأفق الجريح يتعثر في حواشيه الرقاق ، صارخا متشبثا بأذيال هاجرة لن تعود، وسرعان ماسيطر الذهول على الجميع فقال أحدهم : ليتك الآن بيننا يا (حماده) فتصوغ هذا المنظر شعراً من نبغ خيالك : رحمك الله من نجم علا ثم هوى . وساد الصمت مرة أخرى ثم استطرد أنور يقول :

عرفته منذ كنا صغيرين في مدرسة القرية — خجولا وادعا، والتقينا بمدرسة رأس التين الثانوية ، ولكنه رغب في العباسية الثانوية . قال لي يومذاك . لن أبقى إلا هذا العام في رأس التين وسألحق بعده بالعباسية : بناؤها مهدىء لأعصابي . وموقعها على هذا التل المرتفع يوحي إلى نفسي بالسمو والرفعة .

وقضى حمادة بقية سنته الثانوية بالعباسية التي كشفت فيه عن طموح باكر، ونبوغ سابق الأوان فذاع اسمه في الشرق ونواديه ومجالسه الشاعر . الرياضي . الواعظ . الفنان . فقد كان يهلوان المتوازيين والمقلة . وشاعر الطلبة . وإمام مسجدهم . وخطيب كل إضراب . وواعظ القرية . وكان إلى هذا كله ممثلا وموسيقيا بارعا ولمع اسمه في الصحافة

ولم يفتني قط الاستماع اليه في كل مناظرة أو محاضرة ، أو الاطلاع على خواطره المسكوبة في الصحف والمجلات

شخصية محبوبة مرحة في غير ابتذال، وخلق كالجبل الأشم. أقام (حمادة) في حجرة على سطح منزل مرتفع . فعرفت أن هذا « البرج العاجي » هو مبعث الهامه ومصدر فنه . وهناك أرهف حسه لتهاويل الطبيعة . فامتزجت بروحـــه وانداحت على وجهه بسمته وإشراقه .

والتحق بالجامعة ، وطلب (الآداب) وأخلص بل تفانى في دراستها . وزاد تألقه ولمعانه بين زمـلائه . وذاع صيته ، ولست اخفي ما كان يجيش في نفسي نحوه من عواطف شتى هي مزاج من حب الخير له ، والغيرة منه ، والعطف عليه ، والانجـذاب اليه ، والدفاع عنه . . مع قليل من الحسد كنت أكتمه وأضغطه وأدفنه جاهداً حتى انحدر في نفسي إلى كهف سحيق عميق .

وكيف لا أغار ونحن من قرية صغيرة تكاد تكون الوحيدين من بين المتعلمين الذين أفلحوا وواصلوا التعليم . ثم كيف لا أنجذب إليه وهو ليس غريبي في شيء . وأخيراً قلت لنفسي : إن (حمادة) سيكون فخرا لقريته بل لوطنه ، فهو جدير بحبي وإخلاصي ، وكلما سئلت عنه لا أملك غير الإعجاب به والإكبار من شأنه .

وكنا مما في إحدى العمائر القريبة من الحي الجامعي ، بقينا به حتى تخرجنا ، أما « حمادة » فقد ذهب إلى الاسكندرية يبحث عن أفق أوسع لميوله ومطامحه ، وبقيت أنا تحت التمرين في مكتب محام شهير .

وفي هذه الفترة أحسست بالفراغ الذي تركه حمادة ، وأخذت أطالع كل يوم أخلاطا من الطباع والعقول والأرواح . فأحسست بمرارة الغربة عن كل من حولي ، وانطويت على نفسي كالثعبان . والغربة المريرة والبرد القارص سيان في هذا ... ولا أدري ما وجه

وعقلية الطفل المحدودة .

وبالرغم من الطرق الكثيرة التي نستعملها في تعليم الأطفال فإني قد تركتها جميعها جانبا ، واستعملت تلك الطريقة مع طفلي وقد حفظ جزءين من القرآن الكريم قبل أن يبلغ السابعة من عمره وهو الآن يشق طريقه بخطى ثابتة في التعليم الثانوي محرز العقيدة ثابت البنيان ، وفي الطليعة !

فما رأي رجال التربية في طريقة الاقدمين ؟ ...

شطانوف — محمد منصور مغضر

الشبه بينهما ، ولكن هكذا كنت أحس ... وهكذا كنت فعلا ... ولا سيما يوم سرى الدفء فى أوصالى . يالله من يوم .. يوم اجتمعت مع الرفاق فى منزل أحدهم ... يوم عيد ميلاده هو وميلاد شقاوتى أنا .. يوم أديرت الكئوس ، وتطوحت الرءوس ورقصت الغانية عارية ، إلا من ذلك الثوب الأحمر الشفاف ... فلم يخف فتنة ، ولم يشف لوعة ... يالها من ليلة حمراء .

كانت هذه الليلة كالشرارة التى أطلقت نفسى من نفسى .. فنفثت سمومها فى كل وكر وبؤرة ... حقا كنت كالثعبان : استبرد ما حوله ، واستمرأ الفساد ، وعشعش حتى تمكن ...

وعدت ليلتها أجرر أثقالا من الآثام ، ما ألبث أن أتعثر فيها حتى أجهد فى إخفاء آثارها فى الطريق الطاهر الذى كنت أطويه صبحاً ومساء فى قدسية الراهب وبراءة الملاك .

وذاب العمود الفاصل بين الفضيلة والرذيلة أمام عينى ... نعم ذاب كالثلج ، وأحسست بلذعاته تحز فى قلبى حتى تجمد فى صدرى .. فلم يعد كما كان ...

واعتزلت ، وتخلفت عن ركب الحياة أسبوعا ، ورحت أحسد الأحياء وأخبط فى الظلام الملتوى المعقد ، فتذكرت ذنب الضب الذى قالوا إنه أعقد شىء فى الوجود .

وانطلقت ذات صباح إلى شرفتى ، أتخفف من أثقال نفسى ، فرأيتنى كالسمكة تخبط فى الشبكة ... فقد ملأت هذه الفتاة مشاعرى ، وما إن غابت عن نظرى فى منعطف الطريق حتى عدت إلى مخدعى بفكر جديد أو قلب جديد ... وأخذت أرقبها كل صباح ومساء ذاهبة آيبة إلى جامعتها ، كتبها تحت إبطها ، وعينها إلى الأمام ، وكانت فى خيالى كالفجر النادى يتمناه قلب شفه السقم ، وأضناه الظلام ... وسميتها « ريحانتى الطاهرة » ، وما كان أليق هذا الوصف بمن صحا عليها قلبى بعد غفوة أنسته أحلام الربيع .

وذات صباح ، طرق الباب طارق ، فإذا بساعى البريد يحمل إلىّ من (حماده) خطابا ، أعتز به ، فلا أنسلى عن هموى إلا بتلاوته ، وإلى لقارىء عليكم قصة أحلامه وأحلامى أودعتها وإياه حطام قلبين ذابا فى سراب .

الاسكندرية فى ٢٠ أبريل

أخى أنور

أحييك وأرجو لك الخير كله . شاءت الأقدار ان تباعد بينى وبينك ، فقد عينت معيداً بجامعة فاروق ، وأنا الآن بصدد إعداد رسالة الماجستير فى ميتا فيزيقا الوجود الذهنى ، .. وكنت أظن يا أخى أن الإسكندرية ستلقانى ببحرها الصافى وسمائها الباسمة ونسائمها الرقيقة ، ولكنها تنكرت لى ، وتجهمت فى وجهى ، وضاقت بى وضقت بها ...

أخى : وفاؤك لى ، وعطفك على يدفعانى إلى أن أبثك الآن بعض ما بى لعلى واجد فى رحابك ما يزحزح هذا الجبل الرابض على روحى .

أنور : أكتب إليك ، وأنا ألقى بنظرى إلى البحر من الميناء الشرقى ، والعاصفة القاتمة تلحفنى سمومها ، وتعوى أصداؤها كالذئاب ، فى أحناء ضلوعى ، والسماء ... نعم السماء التى كانت تزهى فى الليل والنهار ، تلفعت بالسحاب الأسود ، يقطر الدم من حواشيه ، وأزهار الشرفة قد جف ريقها واحترقت أنفاسها ، وتبدل شذاها غبارا ، « غصة فى الحلق » .. لم أعد أطيق المكث هنا .. ولا تحسبن جديداً فى حياتى طرأ على نفسى ... ولكن ... ماذا أقول ؟ منذ فارقت العمارة ، فإن فى النفس ذكريات ... سأذهب إلى الريف أقضى يومين ثم أعود ، والسلام ،

حمـــادة

الجيزة فى ٢٣ ابريل

تحية الحب والوفاء ، وبعد فقد ألمت بى محنة أزمتنى الفراش أسبوعا ، لم أصح منها إلا على خطابك . تلوته ، فأفقت مما أنا فيه ، ولست أتردد فى أن أبعث اليك بخالص شكرى على أن خصصتنى ببث شكواك .

وإذ يصلك خطابى أرجو أن تكون قد نفضت عن نفسك غبار إعصار فيه نار .

حمـــادة

عرفتك ذا الوجه المشرق البسام ، فلا تكن غير ذلك ، وإياك أن تستسلم لأفكارعيسى ألا تكون غير أوهام . ألا ترى أنى كنت إلى حين تسلم خطابك فريسة لواعج فرت وبرت ماشاء منى ، فكنت — بلا مبالغة — كفنار الاسكندرية يبعث نور الأمل لسفينة غارقة فى اقباء الحلك .

أخى :

هات ما عندك ، واطرح على ما شئت ، فانما أنت ذخيرة لا يستهان بها ، وثروة فى النبوغ تزهى بها خزائن المجد . ولست من الهوان على أخيك حتى يتركك لما أنت فيه . وحذار أن تسترسل . وحذار أن تيأس.

أخـــوك

أنور

الاسكندرية فى ١٥ يونيو

ما توانيت فى الرد عليك عن قصد ، فقد أصبحت كالزورق الحيران لا شراع ولا مجداف ، تناوحت به الريح ، وتناهبـــه الأحداث . ولا سيما بعد أن خلوت من أعباء العمل ، وصرت شلوا ألقى به إلى ذئب مسعور . تلك هى نفسى الضارية . وبلى منها . لقد صرت أمقتها وأنكرها . أهكذا تنهشنى ، وأنا الذى روضتها فى المهد ، فأحسنت تروبضها ، فلما استقامت لى لم أحرمها من لذائذ الحلال شيئا . يالها من خائنة !

أخى :

لن أفضى اليك برماد النار . بل بجذوتها . أرأيت العمارة التى كنا ولا تزال بها أنت . وأنت خارج من بابها إلى يمين . بعد منزل أو منزلين ، أوقع بصرك الى الدور الثانى . الشرفة الدائرة هناك يا أنور سر خفى لا أدرى مدى تغلغله فى نفسى .

تلك الفتاة كانت زميلتى فى الدراسة . وقع عليها نظرى فجأة فعرفت الحب من أول نظرة . كانت كالوردة لم تتفتح بعد . وإن الربيع يضفى عليها من الفتنة والجمال ما جعلنى أسبح من يومها فى بحر لا شطئان له . نتحدث بعد كل محاضرة ، فكان لحديثها فى نفسى موقع الماء من ذى الغلة الصادى . وما كنت أشعـــر بالوجود ولا بالزمن بل هى اللهفة تسوقنى الى النبع الصافى ، فأرتوى ، فما البث أن أظمأ من جديد

وكنت أعرض عليها بعض خدمات تقتضيها الزمالة الجامعية .. فتشكرنى بنظرة وبسمة أعدها غذاء روحى فى اليوم كله .. وضقت بالمجد ذرعا ، وسرعان ما انتقلت حياتى من عقلى إلى قلبى .. من أعماق الكهوف ، وأصنام الماضى إلى أحلام الربيع ، وألحان الفجر .. وقلت للمجد : وداعاً ، عد .. لا حاجة بى إليك .

وعهدت لزواجى منها بزيارة لها بمنزلها حيث استقبلنى خالها ، فقد علمت أنها يتيمة الأبوين . وكانت هذه الزيارة لقلبى كالرهم يهدهد جراحه الصارخة . وفاتحت أبى لأنى خجلت من مفاتحة أبى فى الأمر ، فكان رده بالموافقة على رغبتى عذبا رقيقا دمعت له عيناى ، كالطفل أعطى لعبة هو فى شوق إليها ..

وتقابلنا بعدها ، فاذا بى أتحطم على « النظرة الصماء » .. نظرة أودت بالرقة والحنان اللذين كنت ألقاها منها كل صباح ..

هأنذا لا أطيق ذكرى هذه النظرة بل الصخرة .. فهل أنا واهم يا أنور ؟

حماده

الجيزة فى ١٧ يونيو

أخى حماده

لك العذر فى تأخيرك الكتابة إلى . واليوم تسلمت رسالتك فشفت نفسى مما تجد ، وعرفت أنك معذب بقلبك الذى لا يطاوعك ، وأيقنت أنك ماهر فيما وقع عليه رأيك ، وأطمئنك مقدما إلى أنى كنت قد عزمت على ما شرعت أنت فيه . وهى فى الحقيقة فتاة لها مزاياها .. ومسلكها مما يرضيك ، ويتفق مع وجهتك . . ولولا وفاة والدى ما أحجمت على مد يدى إليها . . ولولا صروف القدر الذى ذهب بذلك العطر الحبيب .. لتغيرت دنياى ودنياك .. لهذا أنصح لك بالتروى والتريث .. والصبر ، فقد اجتاز الأمر دور العاطفة وأصبح فى نطاق العقل وحده . . أرجو أن تحتمل أكثر من صدمة .

أنور

وفى الصيف تقابلنا ، فأنكرت ما رأيت من حال (حماده)، وكدت لا أعرفه من فرط ما بدا عليه من إرهاق وهزال ، وبادرنى مقتبطا متمردا قال : —

أهكذا يا (أنور) تقلب لى ظهر المجن .. ليتنى لم أبح لك بسرى .. لولا أنك كنت تعدنى ذخيرة لا يستهان بها ، وثروة فى النبوغ تزهى بها خزائن المجد . . اليوم أفلست تلك الخزائن ، وذهبت أسطورة النبوغ أدراج الرياح . .

والتزمت الصمت ، وكلفت نفسى عسرا لأصطنع ابتسامة . ولكن دون جدوى ، حتى أعرض عنى (حماده) وتولى كالعاصفة . ولقد خشيت — إن أنا بحث له بالأمر — أن يقع عليه كالصاعقة ، فتأتى على ما تبقى من هيكله المهدود . ولكن آثرت كتمان خبر انتحارها ، ورضيت منه بتهمة سوء الظن التى رمانى بها رفيق الصبا ... ولو كان فى حطام نفسه بقية لأدرك ما كنت أعنى بذهاب العطر الحبيب فى خطابى الأخير

ولست أدرى بعدها كيف بلغه الخبر ، فذهب إلى قصر النيل والتف بذراع الموجة المذراء ، وغاب فى اليم بتراب الكأس الذى احترق فيه نبوغ الشباب .. وهنا تنفس أنور الصعداء ... وأجهش للذكرى ، ثم قال : أما أنا ... فكتمت السهم فى كبدى

محمد محمود زيتون